الظاهرة المكانية خصوصيتها وأبعادها في شعر البردوني: صنعاء أنموذجاً

The Place Phenomena, its Features and Dimensions in Al-Baradoni's Poetry : Sana'a as a Symbol.

د. علي يوسف عثمان عاتي

أستاذ مشارك أدب ونقد

كلية التربية-سيئون

جامعة حضرموت- اليمن

2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

(AUST)

ISSN : 2410-1818

الظاهرة المكانية خصوصيتها وأبعادها في شعر البردوني: صنعاء أنموذجاً

ملخص البحث:

يسعى الباحث من خلال القراءة والتأمل في شعر عبدالله البردوني الوقوف على التجربة الشعرية، وتجلى الفضاء المكاني في شعره لاسيما (صنعاء) وتكرار الشاعر لذكرها بكل خصوصيتها وأبعادها، وكذا الكشف عن **(الظاهرة المكانية خصوصيتها وأبعادها في شعر البردوني: صنعاء أنموذجاً)** بقراءة نقدية تحليلية بالرغم من كثافة الأمكنة وتنوعها وتعدد الفضاءات ما بين أماكن واقعية حقيقة وأماكن متخيلة مرتبطة برؤى ومخزون الشاعر التي تلامس طيف الأحبة والخيال.

كما أن التجربة الشعرية ظهرت فيها مجموعة من الأبعاد ومن تلك الأبعاد: (**البُعد النفسي -والبُعد الجمالي - والبُعد الحضاري - والبُعد الثوري**) وانعكاسات المكان وخلفياته الدلالية وعلاقة شاعرنا به. ونأمل أن تسهم هذه الدراسة في الكشف عن زاوية من زوايا تجربة شعر البردوني. أمّا **منهج البحث** في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي؛ لأننا بصدد تتبع أبعادها وكذا تتبع النص الأدبي بالتحليل في بنيته الداخلية.

Abstract :

The researcher intends, through reading and deep thinking in Abdullah Al-Baradoni's poetry to examine the poetic experience and the place space in his poetry, especially Sana'a and its repetitions with its features and dimensions. He also intends to reveal the place phenomena, its features and dimensions in Al-Baradoni's poetry, Sana'a as a symbol through a critical and analytical reading despite the fact that the numerous number of places and its variations and the places which are either real or imaginative places related to the views and storage of the poet that touches the imagination of dears. A number of dimensions as the psychological, beauty, civilized and revolutionary ones were included in his poetical experience. Moreover, the reflections and backgrounds of place and its relationship with Al-Baradoni were pointed out. It is hoped that this study will participate in revealing an important area from Al-Baradoni's poetic experience. The analytical and descriptive method is adopted in this research which enabled the researcher to follow and analyze the literary text in its internal body.

ISSN : 2410-1818

المقدمة :

تُعد الظاهرة المكانية في التجربة الشعرية عند عبد الله صالح البردوني[1] تجربة ناضجة مكثفة لها خصوصيتها وأبعادها، فقد ظهر المكان متفاعلا ومتناميا مما أعطى الفضاء المكاني لـ(صنعاء) كثافة عالية وعميقة، وقد ساعد في إبرازها استخدام الطاقة التعبيرية وتوظيفها التوظيف الأمثل مما أحالها إلى كائن حي له من المشاعر والاحاسيس ما يجعلنا نقف مع المكان على أنه ليس معطىً خارجيا محايداً وإنما هو "(حياة) لا يحده الطول والعرض فقط وإنما خاصية الاشتمال"[2]

ولعل خصوصية احتفاء البردوني بصنعاء في شعره تكمن في أنها أحدثت نقلة نوعية في حياته وفكره ووجدانه، ووجد فيها بغيته المنشودة عندما التحق بدار العلوم بصنعاء ،كما أن علاقته كانت "مختلفة بأهلها وبحياة العلم فيها والمجالس الثقافية وفرص اللقاء بين المثقفين والمؤرخين والكتّاب والشعراء، وكانت زاخرة بالشعر والشعراء، فيمكن أن أقول إن بدايتي الحقيقية مع الشعر كانت من مدينة صنعاء منذ عام ١٩٤٩م وحتى الآن "[3] .كما يرى الدكتور عبد العزيز المقالح في دراسة له بعنوان (ملامح حداثية في شعر البردوني) "أن القارئ يستطيع أن يكتشف بنفسه أن البردوني الذي كان أكثر الشعراء المعاصرين محافظة على نظام القصيدة البيتية هو في الوقت ذاته أكثرهم خروجاً على هذا الشكل من داخله ومن خلال استيعاب المغامرة"[4]. وعندما "نتأمل -حياة الشاعر عبد الله البردوني -(الإنسان) يتكشف جانب معْمور لكنّه مضيء كبرق، ومطمور لكنّه سامق كأفق، وهيهات أن تطمح عصور من

(1) ولد البردوني في قرية" البردون -من قبيلة بني حسن في ناحية (الحدأ) "-سنة ١٩٢٩م بمحافظة ذمار. وقد توفي يوم الاثنين ٣٠/٨/ ١٩٩٩م بعد أن خلد اسمه بين شعراء العربية في القرن العشرين. تلقى تعليمه الأساسي على يد مشايخه بالقرية ثم انتقل إلى مدينة ذمار في الثامنة من عمره حيث أكمل حفظ القران الكريم ثم انتقل إلى المدرسة الشمسية بذماروأتم تجويد القرآن بقراءاته المتعددة. ومنذ بلوغه سن الثانية عشرة من عمره بدا يغرم بالشعر حفظا ونظماً ثم انتقل إلى الجامع الكبير بصنعاء ثم إلى دار العلوم بصنعاء التي تخرج فيها بإجازة في الأدب ثم عمل بها مدرسا للأدب العربي. وقد شغل العديد من المناصب الحكومية وهو شاعر مطبوع له اثنا عشر ديوانا مجموعة في مجلدين. وله ثمان دراسات أدبية ونقدية. كما كتبت عنه العديد من الدراسات السخرية في شعر عبدالله البردوني مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني، والصورة الشعرية في شعر البردوني د.وليد مشوح، وشعر البردوني قراءة أسلوبية د.سعيد الجرير...). انظر مقدمة الأعمال الشعرية للبردوني،ص٢٣.

(2) حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي: قراءة موضوعاتية جمالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٠١م، ص١٨.

(3) د.وليد مشوح ،الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني،كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، السعودية،٢٠٠٠م، ص٢٣.

(4) د.عبد العزيز المقالح، ملامح حداثية في شعر البردوني، مقالة بالانترنت.

ISSN : 2410-1818

الشعر والشعراء إلى التحليق في سماواته الرحبة وأجوائه الإنسانية العذبة والمعذبة في آن"[٥].

وأرى أن للبردوني رؤية ثاقبة في مجريات كثير من الأمور على الرغم من ظروفه المعيشية الصعبة التي مرّ بها في صغره، وقد استطاع تجاوزها بما يملك من إرادة وعزيمة وتحدٍ وثقة في نفسه ومنافسة أقرانه. وربما تكون ولادته جاءت في فترة استثنائية باليمن حيث انتشار الجهل والمرض والفقر وحكم الإمامة "فقد حدث عام ١٩٤٩م انقلاب فاشل سُجن البردوني على إثره تسعة أشهر"[٦] فكان له الجمع بين محبس البصر والدار والسجن فصوَّر تلك المأساة في قصيدته الموسومة بعنوان (رحلة التيه) سنة ١٩٧٣م حيث يقول وهو يشير إلى السجن والعمى والقيد:

هدني السجن وأدمى القيد ساقي فتعايت بجرحي ووثاقي
وأضعت الخطو في شوك الدجى والعمى والقيد والجرح رفاقي
في سبيل الفجر ما لاقيت في رحلة التيه وما سوف ألاقي
سوف يفنى كل قيد وقوى كل سفاح وعطر الجرح باقي[٧]

إن البردوني "لم يكن مجرد (عابر سبيل)[٨] في حياتنا ولن يكون.. – فهو– شاعر كل العصور. إنه شاعر الألف عاماً الماضية على الأقل، وأحسب أنّ زمناً طويلا سيمرُّ قبل أن تعرفَ اليمنُ شاعراً آخر يمكن أن يرتقي هذه الذرى التي حلق البردوني في أجوائها، وقد كانت ذرى صعبة مستحيلة على المستويين الإبداعي والإنساني"[٩]. وقد قُدمت حول شعر عبد الله البردوني عدة دراسات لكنّها لم تدرس (الظاهرة المكانية خصوصيتها وأبعادها في شعر البردوني) بحسب اطلاعي وعلمي المتواضع، وخصوصاً هذه المساحة الواسعة في شعره بالرغم من تعدد الفضاءات المكانية وتقاطباتها في تجربته الشعرية، ولست هنا اتتبع حياة الشاعر بالتفصيل، وإنما اكتفيت بتقديم

(٥) خالد الرويشان، مقالة، بين يدي البردوني، عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠٢م، ص١٤ وص٢٣ بتصرف.
(٦) مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني، السخرية في شعر عبد الله البردوني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣١هـ، ص٢٥.
(٧) عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١ ،الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠٢م، ص٣٦٣.
(٨) عنوان القصيدة.
(٩) خالد الرويشان، مقالة ،بين دي البردوني، عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١ ص١٥.

ISSN : 2410-1818

خطوط رئيسة عن الشاعر بما يُعرّف بحياته وتجربته الشعرية، وإنما هدفنا دراسة وتحليل الظاهرة المكانية المتمثلة في (صنعاء).

هدف الدراسة ومنهجها: نسعى من خلال القراءة والتأمل في شعر عبدالله البردوني الوقوف على التجربة الشعرية، وتجلى الفضاء المكاني في شعره لا سيما (صنعاء) وتكرار الشاعر لذكرها بكل أبعادها وخصوصيتها، وكذا الكشف عن (الظاهرة المكانية خصوصيتها وأبعادها في شعر البردوني: صنعاء أنموذجاً) بقراءة نقدية تحليلية بالرغم من كثافة الأمكنة وتنوعها وتعدد الفضاءات ما بين أماكن واقعية حقيقة، وأماكن متخيلة مرتبطة برؤى ومخزون الشاعر التي تلامس طيف الأحبة والخيال. كما أن التجربة الشعرية ظهرت فيها مجموعة من الأبعاد ومن تلك الأبعاد: (البُعد النفسي– والبُعد الجمالي– والبُعد الحضاري في صنعاء– والبُعد الثوري) وانعكاسات المكان وخلفياته الدلالية وعلاقة شاعرنا به. ونأمل أن تسهم هذه الدراسة في الكشف عن زاوية من زوايا تجربة شعر البردوني. أمّا منهج البحث في هذه الدراسة فهو المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي؛ لأننا بصدد تتبع أبعادها وكذا تتبع النص الأدبي بالتحليل في بنيته الداخلية.

تمهيد:

الظاهرة المكانية: مفهوم الظاهرة المكانية: ورد في المعجم الأدبي (الظاهرة)" واقعة أو حادثة تُمكن ملاحظتها داخلياً أو خارجياً، في مقابل: مفهوم أيّ شيء في ذاته، كما يبدو للعقل المحض في الفلسفة الكانطية. أمّا التبرم بالحياة والاوضاع فهي ظاهرة قد لازمت الشعر"[١٠]

الظاهرة: تعني أنه لا يوجد موضوع بلا ذات" الفكرة المركزية فيها هي قصدية الوعي، أيّ أنه دوماً متجه إلى موضوع"[١١]. ولذا عند القراءة في التجربة الشعرية كما يرى باشلار: (نطلب من قارئ الشعر ألا يعتبر الصورة الشعرية كشيء أو بديلاً عن شيء، بل أن يقتنص حقيقة خصوصيتها. ولهذا فإنّ فعل الوعي الخلاق يجب أن يرتبط

(١٠) جبور عبدالنور، المعجم الأدبي، مادة (ظاهرة)،دارالعلم للملايين، بيروت لبنان،ط٢ ،١٩٨٤م،ص١٦٧

(١١) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة:غالب هلسا ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع، بيروت –لبنان،ط٢ ،١٩٨٤م، ص١٠.

ISSN : 2410-1818

منهجياً بأكثر منتجات الوعي سرعة زوال، ونعني به الصورة الشعرية وعلى مستوى الصورة الشعرية فإن ثنائية الذات والموضوع متنوعة، ذات وميض مفاجئ، نشطة في تحولاتها المتدفقة دون توقف"[١٢] .

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للمكان: جاءت لفظة(مكان) في تهذيب اللغة" (مكان) في أصل تقدير الفعل (مَفْعَل) لأنه موضعٌ لكينونة الشيء فيه"[١٣]. وقد جاء في لسان العرب" و المكان: الموضع، والجمع أمكنةٌ" [١٤]. كما ورد في المحكم والمحيط الأعظم بمعنى "مكان الموضع والجمع: أمكنة ،كقذال وأقذلة وأماكن جمع الجمع"[١٥]وهو الحاوي للشيء المستقر كمقعد الإنسان من الأرض وموضع قيامه واضجاعه وهو عند المتكلمين بُعدٌ موهوم يشغله الجسم بنفوذه فيه، وهكذا عند أفلاطون، وأمَّا عند أرسطو فهو السطح، ومن الفلاسفة من قال: هو الخلاء"[١٦]. ولنا أن نقول هو أيضاً المكان الواسع من هذه المعمورة.

أمّا في الاصطلاح: فهو الحيز الذي يشغله المخلوق أو هو إحساس الإنسان حيال هذا المكان بالألفة والارتباط الدائم به. وقال غالب هلسا إن" المكان هو المكان الأليف وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة. إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا"[١٧].ويرى آخر أن المكان هو" حاضن الوجود الإنساني"[١٨] إن المكان يجسد قضية مفصلية في الحياة، وذلك" للعلاقة اللصيقة بينه وبين هوية الإنسان وثقافته، ولعلاقته بالزمن والتاريخ، ورمزيته الروحية ولارتباطه بالذاكرة

---

(١٢) المرجع السابق ،ص١٩

(١٣)أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة ،ج١٠،تح علي حسن هلالي، الدار المصرية للتأليف والترجمة ودار القومية العربية للطباعة القاهرة ،(د.ط) ١٩٦٤م، ص٢٩٤.

(١٤) ابن منظور،لسان العرب، مج٦ باب(الميم –مكن)،دار المعارف، القاهرة،(د.ت)ص٤٢٥٠.

(١٥) أبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده المرسي المعروف بابن سيده المحكم والمحيط الأعظم،ج٧،تح عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،ط١، ٢٠٠٠م، ص٧١

(١٦) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات في معجم المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٨م، ص٨٢٦.

(١٧) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع ، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٤م ص٦.

(١٨) عبدالحميد المحادين،جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ط١ ،٢٠٠١م،ص٢٠

ISSN : 2410-1818

الذاتية والجمعية للإنسان"[١٩]. وقد قسم الناقد حميد لحمداني مفهوم الفضاء أربعة أشكال هي: (الفضاء بوصفه معادلاً للمكان والفضاء النصي والفضاء الدلالي والفضاء كمنظور) وألخصها على النحو الآتي:

الشكل الأول: الفضاء كمعادل للمكان ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي ولايقصد به بالطبع المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي كتبت بها الرواية ولكن ذلك المكان الذي تصوره قصتها المتخيلة.

الشكل الثاني: الفضاء النصي وهو الحيز الذي تشغله الكتابة بوصفها أحرفاً طباعية على مساحة الورق، ويشمل ذلك طريقة تصميم الغلاف ووضع المطالع وتنظيم الفصول وتغيرات الكتابة المطبعية وتشكيل العناوين وغيرها. ويخلص لحمدان بأن الفضاء النصي هو أيضاً فضاء مكاني لأنه لا يتشكل إلا عبر المساحة، مساحة الكتاب وأبعاده، غير أنه مكان محدود ولا علاقة له بالمكان الذي يتحرك فيه الأبطال، فهو مكان تتحرك فيه –على الأصح – عين القارئ، هو إذن بكل بساطة فضاء الكتابة الروائية بوصفها طباعة.

الشكل الثالث: الفضاء الدلالي، مما له علاقة بالصور المجازية ومالها من أبعاد دلالية حسب جينيت بحيث يكون هناك فضاء دلالي يتأسس بين المدلول المجازي والمدلول الحقيقي وهذا الفضاء من شأنه أن يُلغي الوجود الوحيد للامتداد الخطي للخطاب.

الشكل الرابع: الفضاء كمنظور أو كرؤية، مما يشبه زاوية النظر التي يقدم بها الكاتب أو الروائي عالمه الروائي حسب رؤية كريستيفا"[٢٠]. ونخلص مما سبق أن الفضاء المكاني مكون من مكونات الحياة وقرينها فلا يمكن للكائن البشري أن يزاول حياته إلا بالمكان و عليه يقوم الحدث وفيه يلتقى بغيره.

(١٩) رضا السيد العشماوي محمد، رؤية المكان في روايات يوسف السباعي، رسالة ماجستير، جامعة المنصورة، مصر، ٢٠١٠م،ص١٠

(٢٠) د.حميد لحمداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطّباعة والنشر والتّوزيع،ط ١، بيروت ١٩٩١م، ص ٥٣ -٦١ بتصرف.

ISSN : 2410-1818

(١) علاقة الشاعر بالفضاء المكاني:

أ) المكان بين الطلل والمدينة: الفضاء المكاني جزء مرتبط بحياة البشرية لا يمكن الاستغناء عنه، فهو مرتبط بالشخصيات والحدث والزمان مع اقتضاء وجود علاقة بين السارد والمسرود والمسرود له. أو بين الشاعر /والأنا الآخر.

وأرى أن أول من نبه الأدباء والنقاد وتطرق للفضاء المكاني والعناية به هم الشعراء في مقدماتهم الطللية فقد أخذ المكان حيزاً كبيراً وعناية بالغة في الشعر العربي وما معلقة امرؤ القيس وطرفة بن العبد وعنترة ببعيدة عن الدارسين والباحثين؛ فطرفة بن العبد يقف إمام الأماكن والمنازل التي اندثرت وأصبحت أطلالاً وأثراً بعد عين فيقول:

لِخَولَـةَ أَطْـلاَلٌ بِبُرْقَـةِ ثَهْمَـدِ، تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ
وُقُوفاً بها صَحبي عَليّ مَطِيَّهُمْ يَقُولونَ لا تَهلِكْ أَسىً وَتَجلّدِ[٢١]

وقال امرؤ القيس:

قفا نَبكِ من ذِكرَى حَبيبٍ ومَنزِلِ بسِقطِ اللّوَى بينَ الدَّخولِ فحَومَلِ
فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ
تَرى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتِها وَقيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلفُلِ[٢٢]

عرض امرؤ القيس في مطلع معلقته "خمسة أمكنة هي: سقط اللوى، والدَّخُول، وحومل، وتوضِح، والمقراة. ذلك أنّ الرَّسْم الدارِسَ الذي يَعْنيه، والرَّبع البالي الذي كان يضني قلبه ويبريه؛ إنما هو سِقْط اللِّوى الواقع بين هذه المواضع الأربعة. فكأنه واسطة عِقْدِها، وجوهرة قلادتها. فالحبيب الذي من أجله استبكى أصحابه بعد أن كان هو بكاه، كان يثوي بهذا الربع الدارس الذي طالما قضّى فيه لحظاتٍ مفعمةً بالسعادة، وأوقاتاً غامرةً بالحبّ، وأزماناً حافلة بالملذّات"[٢٣].

---

(٢١) أبوزيد الخطابي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: محمد علي الهاشمي،ج١ ،لجنة البحوث والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط١، ١٩٧٩م،،ص٤٢٠

(٢٢) أبوزيد الخطابي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ،ج١ ،ص٢٤٥.

(٢٣) عبد الملك مرتاض، السبْع المعلّقات "مقاربة سيمائيّة/ أنتروبولوجيّة لنصوصها"،من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق١٩٩٨م، ص٦٥.

ISSN : 2410-1818

إنّ علاقة الشاعر بالمكان(الطلل) علاقة حسية تكتنفها التجربة الفردية و تتجلى فيها ملامح الخواء وطمس الأثر في الزمن الحاضر المقفر، ويعارضه الزمن الماضي المفعم باللقاء والحياة. "إن الطلل بوصفه رماد مكان مقهور، وقبيلة ظاعنة يستدعي إلى الذهن تلك الاقامة بكل حيويتها وتستدعي الحيوية بشخص تلك المرأة التي يطلبها الرجل لكونها السكينة والاطمئنان، ليس لحفظ النوع بل لحفظ النفس"(٢٤)

إنّ الشاعر عندما يتأمل الزمن في الطلل، إنما يعقد مقارنة ثنائية بين الأمس واليوم، فهو وحيد منفرد يعزي نفسه إزاء الزمن الذي غير كل شيء. ويبدو أن الشاعر قد ضاق ذرعا بذلك وأحس تأثير ذلك في الإنسان والحياة معاً.

وهناك من يرى "أن بكاء الأطلال ليس عاطفة خاصة ولا تجربة وجدانية ذاتية بل لحظة حزن أملاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني وبالحنين المتجدد إلى الاستقرار والمكان الثابت الذي يستطيع فيه أن يقيم بيتا يخلد فيه ذكرياته، ويسترجع صباه ، ثم إنه في حقيقة الأمر لم يكن يواجه ذكرى حب وحسب وإنما تتداعى في ذاكرته صور من شبابه الضائع. وهذان الرافدان يكفيان لخلق عاطفة تثير في نفسه جواً مناسباً يحمله على الحنين"(٢٥).

بينما يربط د.كمال أبو ديب بين الإنسان والمكان والزمان عندما وقف على ظاهرة الطلل حيث يقول: "لأن المكان والإنسان بعدان من أبعاد الزمن فقط ،فإننا لا نراهما إلا بوصفهما موضوعاً للتغير فهما لا يتجليان إلا في لحظة التغير أو في عملية التغير"(٢٦). ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن العلاقة بينهما تتلاحم وتتكامل في صنع الأفعال كما يرى د.محمد عزام فيقول "وإذا كان (الزمان) يرتبط بالإدراك النفسي، فإن (المكان) يرتبط بالإدراك الحسي. وإذا كان (الزمان) يرتبط بالأفعال والأحداث، وأسلوب عرضها هو السرد ، فإن أسلوب تقديم (المكان) هو الوصف"(٢٧).

(٢٤) سعد حسن كمّوني، الطلل في النص العربي، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط١ ، ١٩٩٩م، ص٣٦.
(٢٥) عبده بدوي، الطلل والتشبيب في مقدمة القصيدة، مقالة، فصول مجلة النقد الأدبي، ج١ العدد٤ لسنة ١٩٨١م، ص٢٦.
(٢٦) كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة،١٩٨٦م، ص٣٢٤
(٢٧) محمد عزام ، شعرية الخطاب السردي،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٦٨.

ISSN : 2410-1818

ب) علاقة الشاعر بصنعاء[٢٨]: ليس بدعا أن يعتني البردوني ويحتفي بالمكان فهو شأنه شأن الكثير ممن سبقه من الشعراء منذ العصر الجاهلي وعلى امتداد التاريخ حتى عصرنا الحاضر من وقوفهم على الأطلال وبكاء الديار وتجسيدهم أروع المعاني وأرق الألفاظ وأجمل العبارات فبرز فيها المكان عنصرًا أساسياً لا يقل شأناً عن ذكر الحبيب كما أشرنا سابقاً من الوقوف على الأطلال التي تجسد لحظة المثير للنفس وتهيج الذكريات.

العلاقة بين الشاعر والمكان هي علاقة حياة وأرض ووطن وروح وجسد وبالتالي امتزجت العلاقة وانصهرت وتماهت لدرجة أن "تتحول المرأة إلى رمز للوطن تأكيداً لعلاقة الحب التي تربط الشاعر بوطنه انسجاماً مع معطيات تلك الحقبة التي كان يتعرض لها الشاعر من أزمة الغربة عن وطنه، وقد انسجم المعجم اللفظي للرومانسيين مع رؤاهم الوجدانية فتركز حول العواطف الإنسانية والكون والحياة، فالاغتراب والتعرف على التجارب الإنسانية المختلفة قد أثر في تشكيل رؤية الشعراء، وأسهم في ترسيخ المفاهيم الرومانسية في أذهانهم"(٢٩).

وربما الغربة النفسية والروحية تعكس خصوصية الذات المنشطرة بداخله هي التي جعلت البردوني يتغنى بصنعاء وما يحدث فيها، فالإحساس بالغربة في المكان الذي تعيش فيه يتحول إلى هاجس وقلق لما يمر به، فهو يهرب منه إليه في مناجاته الخاصة.

إن المتلقي أو القارئ العادي يقف إمام الخطاب المسرود متأرجحاً في مناجاة (صنعاء) مما تجعله مشدوها في تلقي التجربة الشعرية ما بين صنعاء(المرأة =الشخصية) أم(المدينة= الفضاء المكاني)، كما أن البردوني في تناوله لـ(صنعاء) قد أشاع النزعة الرومانسية التجديدية في تجربته الشعرية بأسلوب مميز لكنها تظل في دائرة ملامح خطاب سردي.

---

(٢٨) عاصمة اليمن وأكبر مدنها وأقدمها تاريخاً، حتى ليقال إن "سام بن نوح" هو أول من اختطها؛ ولهذا تُسمّى مدينة(سام)، كما تُسمّى مدينة "أزال" نسبة إلى أزال بن قحطان. وقد كانت أحد مراكز السبئيين والحميريين، ولكنهالم تُستعمل عاصمة إلا منذ القرن الخامس الميلادي حيث جعلها أبرهة الحبَشي مركزا له، وبنى فيها كنيسته المعروفة بـ(القليس) الواقعة خرائبها في أعلا سوق الملح بجوار قصر غمدان. وتقع وسط واد فسيح تحيط بها الجبال العالية منها جبل (نقم) وجبلي عصروعيبان. انظر: إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص٩٢٠.

(٢٩) سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان، المكان في شعر طاهر زمخشر، رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز٢٠٠٨م،ص٦٧.

ISSN : 2410-1818

إنّ صنعاء (المرأة = الشخصية) "ليست مجرد قيم وسمات بل تتضمن صفة هامة بها وهي التنظيم الاجتماعي الذي بدونه قد تصبح عاملا معوقاً في النمو، والانتماء إلى جماعات متعددة في المجتمع"[٣٠]. وهناك من ذهب إلى"أن مفهوم الشخصية ليست مفهوما أدبياً محضاً، وإنما هو مرتبط أساساً بالوظيفة النحوية التي تقوم بها الشخصية داخل النص، أمّا وظيفتها الأدبية فتأتي حين يحتك الناقد إلى المقاييس الثقافية والجمالية"[٣١].

الظاهرة المكانية المتمثلة بـ(صنعاء) قد حظيت صنعاء في تجربة البردوني الشعرية بعناية خاصة، فنالت عنده النصيب الأوفر، فنلاحظ أن لها حضورًا لافتاً، وقد تجلى ذلك في عدة دواوين منها: ديوان" لعيني أم بلقيس" وفي ديوان" من أرض بلقيس" وفي ديوان السفر إلى الأيام الخضر"، وتفسير هذا الحضور للمكان ربما يعود إلى حب الشاعر لصنعاء والألفة لها والعيش فيها وكذا نظرة الشاعر إليها في لغة المقاومة والثورة أنها إذا تحررت من أعداء الوطن تحرر كل الوطن. فالوطنية تسري في دمه وفكره وعبر عنها بكل مشاعر الحب كما، ظهر لنا بالرجل المشفق على الوطن والمواطن المتجلي في (الاغتراب والمغترب وفي المنفى)كل تلك الملامح وتجلياتها تعكس هموم وطن في تجربة شعرية ومأساة شعب لم يعرف من اليمن السعيد الاّ المسمى بعيداً عن الواقع بما يحمل من قبح وشقاء وتحولات وتقاطعات مصالح.

إنّ الظاهرة المكانية في التجربة الشعرية عند البردوني شكلت جانبا مهماً وملحوظاً فهي الطبيعة وجمالها والوطن ورمز الحب والشوق، فمن يتأمل الأعمال الشعرية للبردوني الجامعة لدواوين الشاعر يجد الظاهرة المكانية جليةً، ففي المجلد الأول جاء اسم (صنعاء) صريحاً في عناوين القصائد الآتية(صنعاء والموت والميلاد - صنعاء والحلم والزمان - صنعاني يبحث عن صنعاء - صنعاء في طائرة)، وفي المجلد الثاني لم يظهر لنا من العناوين الصريحة إلا قصيدة واحدة (صنعاء في فندق أموي) لكنها لم تنعدم من الذكر والتكرار في المجلد بمسميات وايحاءات أخرى. في حين اتسمت الظاهرة المكانية بالكناية عنها فجاء في المجلد الأول الإشارة إلى ذلك بالآتي

(٣٠) عبد الرزاق جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية (د.ط) ١٩٨٩م، ص٢٦.
(٣١) حسن بحراوي، بنية الشكل الرواني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩م،ص٢١٣.

ISSN : 2410-1818

(لها – من أرض بلقيس – هذه أرضي – وطني – أسمار القرية – ضائع في المدينة – إلا أنا وبلادي -في بيتها العريق – مدينة بلا وجه – من بلادي عليها – في الغرفة الصرعى – لعينيك يا موطني -كُليمة لمقبرة خُزيمة – حروب وادي عوف – القصيدة الوطن – أمسيات في فندق – زوجة البلد – سيؤون تورق من قلب الصاعقة – لأنك موطني – عرّافة الكهف – عرّافة المغارتين). ولنا أن نتناول القراءة للظاهرة المكانية (صنعاء) من اتجاهين هما: الاتجاه الأول: صنعاء ودلالة المرأة والثاني: صنعاء المدينة.

الاتجاه الأول: صنعاء (دلالة المرأة): ونحن في هذا الاتجاه نريد أن نقف هنا مع (صنعاء المرأة الحسناء – الإنسانة مجازاً – الشخصية) ومدى الخصوصية التي ارتبطت بها في شعر عبدالله البردوني حيث تكرر ذكرها والتغني بها بين الأمس واليوم بل ذكرها يوحي بمعادل موضوعي في ذاكرة الشاعر الذي ما يزال يفتأ يردد اسم (صنعاء) في تجربته الشعرية وفي محافل الشعر والأدب حتى وفاته.

الظاهرة المكانية (صنعاء): (دلالة المرأة – الإنسانة – الشخصية) تكتسي ملامح المرأة الفتاة الجميلة الحسناء التي تستحق أن يبذل في رضاها كل غالٍ ونفيس، وهي في الصبا تكتسب صفة الطيش والتهور وعدم المبالاة في تصرفاتها. وفي الشيخوخة تظهر تجاعيد الوجه وتدلي حاجبيها ونهديها، والتروي في مجريات الأمور، ومع امتداد الزمن يصيبها الوهن والضعف فيقول :

لتلك التي تفنى وأخلقُ وجهها ... وأرفع نهديها وأبدعُ فاها
أذوب وأقسو كي أذوبَ لعلني ... أُؤججُ من تحت الثلوج صباها
أغني لمَن ؟ ..للحلوة المرة التي ... أُبرعمُ من حزنِ الرّمادِ شذاها
لصنعَا التي تُردي جميعَ ملوكِها ... وتهوى وتستجدي ملوك سواها
لصنعَا التي تأتي وتغربُ فجأةً ... لتأتي ويجتازُ الغروب ضُحاها[٣٢]

وقد يلجأ البردوني على النهج الرومانسي فيضع صنعاء بصورة امرأة مسافرة تحمل أعباء الهموم وهي تطير على المقعد المستقر بالطائرة لتصير بعد العز والمكانة وصيفة على الجواري بعد فُقد الخليفة والبيع في سوق العبيد على يد جنود الخليفة حيث

(٣٢)عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١، ص٦٥١-٦٥٢.

ISSN : 2410-1818

تبكي مأسوفة ومقهورة ولماذا كل هذا الخوف؟ لقد (أضاعت كل شيء ...العفاف ورمت الجبين وأسلمت النهدين في يوم السقيفهْ) في مقابل أنها تأخذ وجهاً آخر من واشنطن وتجرب كل جيفة لكن متى تأنف صنعاء وتعود لسابق عهدها أنيفة منيفة ونظيفة. حيث يقول الشاعر في قصيدة(صنعاء ..في طائرة):

على المقعد الرّاحل المستقر ... تطيرين مثلي..ومثلي لهيفةْ
ومثلي...أنا صرتُ عبدَ العبيدِ ... وأنت لكلِّ الجواري وصيفهْ
فقدنا الخليفة..مّذ باعنا ... إلى كل سوقٍ...جنود الخليفة
أصنعا إلى أين..؟ أمضي أعودُ ... لأمضي ...كأني أؤدي وظيفهْ
أتبكين؟ لا ...لا ومن تؤسِفينَ ... إذا أنتِ مقهورةٌ أو أسيفهْ
وماذا سيحدث لو تصرخين ... وتتزرينَ الدموع الكثيفة
سيرنو إليك الرفيقُ اللصيقُ ... وينساك حين تمرين المضيفهْ
تخافين...ماذا؟ على أيّ شيءٍ ... تضنين ؟.. أصبحتِ أنتِ المخيفهْ
فلم يبق شيءٌ عزيزٌ لديك ... أضعت العفافَ ووجه العفيفهْ
على باب(كسرى) رميتِ الجبين ... وأسلمتِ نهديك يوم السقيفهْ
أصنعا...ولكن متى تأنفين ... يقولون قد كنت يوماً منيفهْ
متى منكِ تمضينَ عجلى إليك؟ ... ترين اخضرار الحياة النظيفهْ[٣٣]

يتضح من الأبيات أن الشاعر أنجز النص بشحنة نفسية تعكس المعاناة (تطيرين مثلي..ومثلي لهيفةْ) في نوع من التقابل(أنا /مثلي / تطيرين/هي)، (ومثلي...أنا صرتُ عبدَ العبيدِ/ وأنت/ لكلِّ الجواري /وصيفهْ) كما أنها تبدو لنا في كامل الأنوثة وتحمل كل مقوماتها وسماتها فصنعاء تسافر عبر زمن وقد فقدت كل شيء ثمين وجميل فيه العزة والكرامة وأضحت تبكي مقهورة وخائفة بعد أن كانت السيدة والمخيفة .فصورة المشهد تظهر التساوي في القهر والعبودية بين أنا الشاعر/ وذاته/ صنعاء.

إن استخدام أسلوب الحوار مع النفس أو مع الآخر يعكس طبيعة حال الاستفهام (السؤال) كونه ركيزة أساسية منتشرة في معظم قصائد البردوني تضفي الصبغة

(٣٣) عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية،ج١ ، ديوان السفر إلى الأيام الخُضر،ص٦٩١-٦٩٣.

ISSN : 2410-1818

الدرامية على النص الأدبي فتزيده تألقاً وديناميكية وحركة في ذهن المتلقي تجعله يفطن لأشياء قد تخفى عليه لكنه بالسؤال يستدرك مغزى ذلك.

والشاعر هنا اخضع المكان لنقل مشاعره الذاتية برؤى نفسية في واقعه بعد قيام الثورة اليمنية ،وقد ذيلها الشاعر بتاريخ١٩٧٤م، فأضفى على (صنعاء) الصفات الموضوعية مستخدما في ذلك ايحاءات اللغة وبما تشعرنا به من التوتر والانفعال كما تعكس الواقع السياسي للعاصمة التي أصبحت مرتهنة في اتخاذ قرارها بواشنطن وتابعة وليست متبوعة ولذا قال:

أتعطيك (واشنطن) اليوم وجهاً؟ خذي.. حسناً.. جربي كل جيفهْ
فقد تلفتين بهذا السقوط كأخبار منتحرٍ في صحيفهْ[٣٤]

فتشكيل "المكان الفني في الشعر يتم من خلال رؤية نفسية للمكان بالإضافة إلى تحديد بعض مفردات مكانية عيانية من الطبيعة الجغرافية للمحيط وكذلك عن طريق إسقاط الشاعر لذاته النفسية والشعورية والفكرية على ما يحيطه من أشياء فيجتنب بذلك الانكسار الذاتي المرتبط بالانكسار المكاني، الذي يشكل لدى الشاعر دافعاً قوياً لبناء جديد قادر على توفير السعادة والأمان اللذين افتقدهما الشاعر في عالم الواقع"[٣٥]. وأحيانا يقدم إلينا صنعاء باسم آخر مرادف لها هو(آزال) تتجلى في مدى إحساسه بتلك الحالة النفسية التي وصل إليها الشاعر في تجربته الشعرية فتنامت فيها المشاهد واتسعت في فضاءها المفتوح حيث يقول:

أضاعت (آزال) بنيها غدت لكلّ دعيّ كأمّ وأبْ
وأقعتْ لها قلبُ فاشيةٍ ووجهٌ عليه سماتُ العربْ
فهل تلك صنعا؟ يفرُّ اسمها إمام التحري ويعوي النّسبْ

إن حضور المكان (آزال) في قوله "أضاعت (آزال) بنيها " يجسد روح تعلق البردوني بصنعاء هذا الاستدعاء جاء ليربط رمز الأصالة العربية وهو الاسم القديم لصنعاء وإضفاء روح الأمومة عليها بالشخصية الانثوية التي تحاول الفرار من المخبر أو التحري

(٣٤) المصدر السابق،ص٦٩٣.
(٣٥) م.د غانم كامل الحسناوي، وم.د عمار سلمان المسعودي ،مقالة ،مجلة جامعة كربلاء العلمية-المجلد الحادي عشر، العدد(٤) ٢٠١٣م، ص٩١.

ISSN : 2410-1818

(إمام التحري) فالمكان يعكس روح المقاومة من الاختطاف من خلال التجسيد والتشخيص.

الاتجاه الثاني: (صنعاء المدينة= الفضاء المكاني): إنّ الحديث عن صنعاء المدينة يعني أننا نقف إمام فضاء مكاني له خصوصيته في تجربة الشاعر، فهي مسرح حياته وشبابه وشيخوخته ومصدر إلهامه ولحظة تجليات بصدقها الفني والواقعي في آن معاً. لقد تشكلت المدينة في التجربة الشعرية من خلال علاقة المرأة بالمدينة في ثنائية بين الفرح والحزن حيث يقول:

لكنّها رغم بُخلِ الغيث ما برحت حُبلى وفي بطنِها "قحطان" أو "كربُ"
وفي أسى مُقلتيها يغتلي "يمنٌ" ثانٍ كحُلم الصّبا ينأى ويقتربُ[٣٦]

إن العلاقة بين الشاعر - أي شاعر - والمكان كانت وما زالت علاقة وطيدة ونتيجة حتمية فهو ابن هذه البيئة التي عاش فيها، ونشأ وتربى في كنفها. ولعل خصوصية احتفاء البردوني بـ(صنعاء) في تجربته الشعرية تكمن في النزعة الإنسانية لدى الشاعر والتصاقه بالناس في هذه الحياة جعلت رؤيته للمكان مختلفة تماما بحكم تفاعله معه والعيش فيه؛ لتعكس جملة من الخصوصية الذاتية التي قد ترتبط بمنحة السعادة والسرور والأنس، وربما تعكس خصوصية أخرى مصدرها الألم والمعاناة، كما أنها قد تجمع بين الحالتين السابقتين من السعادة وحلاوتها والألم ومرارته في آن واحد.

إن التجربة الشعرية تعكس لنا وعي الشاعر بقضايا المدينة (صنعاء) في فضائها الواسع وواقعها ومصيرها المحتوم في ظل المتغيرات، وما يحصل فيها من تقاطبات بين الإمامة ورواد الثورة التي كان البردوني أحد شهودها ومناصريها، وممن اكتوى بنارها داخل السجن فأثر على نفسية الشاعر. و قد بلور كل ذلك بما يملك من دفقات شعرية متنوعة. ففي قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) التي ألقاها في محفل الشعر والأدب بالمربد يخاطب حبيب بن أوس الطائي حيث يقول:

(حبيب) وافيتُ من صنعاءَ يحملُني نسر وخلفَ ضلوعي يلهث العربُ

(٣٦) عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١، ص ٦٢٦-٦٢٧.

ISSN : 2410-1818

ماذا أُحدّثُ عن صنعاءَ يا أبتِ؟ مليحةٌ عاشقاها: السّلُّ والجَربُ
ماتت بصندوقِ "وضاح"[٣٧] بلا ثمنٍ ولم يمت في حشاها العشق والطربُ
كانت تُراقبُ صُبحَ البَعثِ.. فانبعثت في الحُلمِ .. ثم ارتمت تغفو وترتقبُ
لكنّها رغم بُخلِ الغيث ما برحت حُبلى وفي بطنِها "قحطان" أو "كربُ"
وفي أسى مُقلتيها يغتلي "يمنٌ" ثانٍ كحُلم الصّبا ينأى ويقتربُ[٣٨]

فنلاحظ أن (صنعاء) في الأبيات السابقة جاءت في نمطين: الأول: أسلوب خبري (حبيب) وافيتُ من صنعاءَ -يحملُني نسر، وخلفَ ضلوعي يلهث العربُ) والثاني: نمط استفهامي (ماذا أُحدّثُ عن صنعاءَ يا أبتِ؟) توحي بتداول الخطاب بين ضمائر: (انا/ أنت/ هي) الاستفهام وجوابه يوحي "باستمرار الغموض والايهام بما يعني أن ظلال الاستفهام تمتد إلى ما بعده وأجمل ما في التركيب الاستفهامي التعبير بالجزء عن الكل، والواقع أن هناك مناسبة بين أداة الاستفهام والمستفهم عنه"(٣٩) الاستفهام عن (صنعاء) والجواب (مليحةٌ عاشقاها: السّلُّ والجَربُ).

صنعاء لم تعد ذلك المكان المعروف من اليمن بل تحولت في أسلوب استعاري لافت في حضورها إذ تظهر لنا بصورة فتاة حسناء جميلة يعشقها المرض (السلُّ والجَربُ) مما أدى إلى موتها (مجازاً) (ماتت بصندوقِ "وضاح) فقد كانت قبل ذلك ترنو بمخيلتها وترتقب أحلاماً في صحوها وغفوتها برغم الجدب وبخل الغيث، بل يكتمل رسم المشهد في إضفاء سمات وعلامات الأنوثة فتظهر لنا وهي (لم يمت في حشاها العشق والطرب) فقد ظلت حبُلى وتحمل في الاحشاء بـ(قحطان وكرب) وهما رمزا الشجاعة والقوة لكن هيهات لها ذلك.

لقد رسم الشاعر هذه التجربة الشعرية في صورة حادثة أو مشهد درامي محزن عندما نجد مصيرها الموت بصندوق وضاح كما حدث مع وضاح نفسه، حيث ألقي

(٣٧) هو عبد الرحمن بن إسماعيل..شاعريماني غلب عليه لقب وضاح لإشراق وجهه ووضوحه. كما تقول الروايات :أحبته (أم البنين) زوج الوليد بن عبد الملك وعندما اكتشف أمره ساعة وصل خبأته في صندوق... وعندما عرف الخليفة أخذ الصندوق ورماه في بئر تحت بساطة.

(٣٨) عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١، ص ٦٢٦-٦٢٧.

(٣٩) د. شعلال رشيد ،شعرية الاستهلال عند عبدالله البردوني، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر- بسكرة-، العدد الثامن ٢٠١١م، ص٩

ISSN : 2410-1818

بصندوقه في البئر بلا ثمن فأبدع في حسن الاختيار للألفاظ ودقة الكلمات الاستعارية (صنعاء = ملحية عاشقاها: السلُّ والجَربُ - حبُلى - وبخل الغيث -كانت تراقب صبح البعث) والتنبؤ بما تحمل في بطنها (قحطان - وكرب)، فبعثت الصورة البصرية للمرأة على السخرية وهي تتفاعل مع حواس المتلقي وكأنها ماثلة للعيان وتلامس مشاعر القارئ أو المتلقي في ايحاءات مجسمة وبث روح الحياة في المكان وكأنها إنسانة لها كل صفات المرأة.

وقد تجلت مكانتها في مستهل الديوان بأعلى الصفحة (إهداء) من ديوان "السّفر إلى الأيام الخضر" عندما صدره بعنوان (لها) حيث يقول:

لتلك التي تفنى وأخلقُ وجهها ... وأرفع نهديها وأبدعُ فاها
أذوب وأقسو كي أذوبَ لعلني ... أُؤججُ من تحت الثلوج صباها
أغني لَمن ؟ ..للحلوة المرة التي ... أُبرعمُ من حزنِ الرّمادِ شذاها
لصنعَا التي تُردي جميعَ ملوكِها ... وتهوى وتستجدي ملوك سواها
لصنعَا التي تأتي وتغربُ فجأةً ... لتأتي ويجتازُ الغروب ضُحاها[٤٠]

لقد جعل الشاعر من صنعاء صورة مثالية، فهي تسكن جميع حنايا الروح وتشغل كل فكره ومشاعره الإنسانية إنها تملك عوامل القوة وتردي جميع ملوكها (كناية عن الكره والبغض) وتقابلها بلحظة أنها تهوى وتحب ملوك سواها، كما أنه جمع فيها الثنائية بين الحلوة والمرة، وبين لحظة الحضور (تأتي) وتغرب(تغيب) ولحظة الغروب وما يكسو المكان من عتمة وبين الضحى.

من يتأمل المعجم الشعري لدى البردوني يجد نفسه إمام لوعة إنسانية تنبض بالحب والوفاء للوطن ولـ(صنعاء) على وجه الخصوص ومدى عمقها في نفسية الشاعر، بل تختزن جذوة عشق لا تنطفئ. تلك المكانة التي تميزت بها المرأة في تجربته الشعرية تنبع من نظرة روحية عميقة تقدس المرأة وتربطها بالمدينة، فإذا ذكر المدينة أضفى عليها صفات المرأة (صنعاء) :

لصنعَا التي تُردي جميعَ ملوكِها ... وتهوى وتستجدي ملوك سواها

(٤٠)عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية، ج١، ص٦٥١-٦٥٢.

ISSN : 2410-1818

لصنعَا التي تأتي وتغربُ فجأةً لتأتي ويجتازُ الغروب ضُحاها

هذا التكرار في هذا النص – وغيره كثير من النصوص الشعرية المبثوثة في دواوينه– يؤكد عمق الحب والعشق اللامتناهي ويربط دلالة الإحساس الدقيق وتجسيد روح الوطنية الصادقة في تجربته الشعرية.

يقول ابن رشيق إنه "لا يجب على الشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة الشوق والاستعذاب إذا كان في تغزل أو نسيب أو على سبيل التنويه به والاشارة إليه" (٤١). صنعاء هنا صورة الحبيبة والوطن، بل نكاد نجزم أنه إذا ترك ذكر صنعاء فهو يكني عنها بأماكن محيطة بها أو جزءاً منها، فحينا يذكر نقم أو فندق من الفنادق الواقعة فيها أو يذكرها باسم (آزال)(٤٢) وهكذا ارتبط مصير الشاعر هنا بصنعاء ارتباطا وثيقاً مما توحي لنا أنها انعكاس للجانب النفسي.

(٢) أبعاد الظاهرة المكانية(صنعاء):

إن المكان في العمل الأدبي سواء أكان شعرا أم نثراً "له مستويات موضوعية، وأبعاد مختارة عن فكر ولغة مبنية عن إحساس دقيق"(٤٣) وقد أجاد شاعرنا في تكثيف الأماكن فلا تجد ديوانا من دواوينه الشعرية إلا وقد جعل من عنصر المكان وعاءً يحمل أبعاداً متعددة وأنماطا مختلفة في تجربته الشعرية، وسوف نقف على أبرز تلك الأبعاد في الاحتفاء والتغني بصنعاء ومنها: (البُعد النفسي، والبُعد الجمالي، والبُعد الحضاري، والبُعد الثوري).

أولاً: البُعد النفسي: يقوم على انفعالات وانعكاسات البُعد الذاتي والوجداني لدى الشاعر. ونقصد به هنا تلك العلاقة التبادلية الحميمة التي يقيمها البردوني مع المكان (صنعاء) بما تعكسه من قوة الخلجات والمشاعر النفسية وانفعالات الانتماء للمدينة التي عاش فيها وأحس بعمق ومدى الارتباط بها.

إنّ الشاعر هنا عكس لنا ألفة المكان وصدق الارتباط به في الجانب النفسي، حيث أقام علاقة وثيقة تتبلور في مخاطبة (صنعاء) بحب عميق يكاد يلامسه كل

(٤١)ابن رشيق القيرواني، العمدة ،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ،دار الجيل بيروت،ج٢ ،ط٥ ،١٩٨١م، ص٧٤
(٤٢) الاسم الثاني لصنعاء أو الاسم التاريخي لصنعاء.
(٤٣) حيدر لازم مطلك، المكان في الشعر العربي قبل الاسلام، رسالة ماجستير،كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٨٧م، ص١٨

ISSN : 2410-1818

متأمل في قصائده الشعرية التي تغنى فيها بجمالها، فهو إن ذكرها صريحة تحولت رمزا للمرأة الحسناء وإيقاظ روح الغيرة في نفس المتلقي (ماذا أُحدّثُ عن صنعاءَ يا أبتِ؟ مليحةٌ عاشقاها: السّلُّ والجَربُ) فنبرة الجمال ظهرت باللغة التعبيرية (مليحةٌ) كما تظهر مدى الحسرة واللوعة على تلك المعشوقة من العاشقين هما :(السّلّ والجرب) فالعشق سمة بشرية أضفاها على صنعاء. إنّ المكان اكتسب " هوية الإنسان الذي يعيش فيه تماما كما يؤثر في الإنسان فيكسبه هوية خاصة، فالمكان يمثل الحيز الأكبر من حياة الإنسان، ففيه يعيش الإنسان ويحتمي وإليه يعود بعد الموت، فنحن لا يمكن أن نتصور وجودنا بلا مكان"(٤٤)

لم تكن التجربة الشعرية في قصيدة (صنعاني يبحث عن صنعاء) تعبيراً عن الإحباط والهروب من الواقع، وإنما تفيد مدى التحول للمكان (صنعاء) مع مرور الزمن في المظهر لهذه العمارات العوالي الشاهقة والمرتفعة التي غيرت ملامح المكان حتى غدا غريبا:

هذي العمارات العوالي ضيّعن تجوالي ...مجالي
هذي العماراتُ الكبارُ الخُرس ملأى كالخوالي
أدنو ولا يعرفْنني أبكي ولا يسألنَ: مالي
وأقول: من أينَ الطريق؟ وهنّ أغبى من سؤالي
هل هذه صنعا ...؟ مضت صنعا سوى كسرٍ بوالي
خمس من السنوات أجلت وجهها الحرّ الأزالي(٤٥)
باللّه يا أماهُ دليني ورقت لابتهالي
قالت: إلى (النهرين)... قدامي وامضي عن شمالي
وإلى القزالي ثم أستهدي بـ(صومعة) قبالي
من يعرف...(النهرين)؟..من أين الطريق إلى القزالي(٤٦)
أليوم(صنعا) وهي متخمةُ الديار بلا أهالي

(٤٤) غني صكبان سلمان، الزمان والمكان في شعر العصر العباسي الأول، رسالة دكتوراه كلية التربية جامعة بغداد، لسنة٢٠٠١م،ص ٥٦.

(٤٥) أزال: الاسم التاريخي لمدينة صنعاء.

(٤٦) القزالي: اسم حي من أحياء صنعاء القديمة.

ISSN : 2410-1818

يحتلها السمّار والغازي، ونصف الرأسمالي
من ذا هنا؟ (صنعا) مضت واحتلها كل انحلالي
أمي! أتلقين الغزاة بوجه مضياف مثالي
لم لا تعادين العدى..؟ من لا يعادي لا يوالي
مَنْ لا يصارع... لا نسائيّ الفؤاد ..ولا رجالي
إني أغالي في محبة موطني...لِمَ لا أغالي؟ (٤٧)

لم يعد الإحساس بالمكان المألوف كما كان وإنما جرت عليه تغيرات تكاد لاتعرف المسكن وبيت الأقرباء والأهل وبالتالي نحس الشاعر– كما يبدو لنا – ينكر أشياء لم يألفها (هذي العمارات العوالي ضيّعن تجوالي ...مجالي– وأضاع فيه معالم محددة كان يعرفها ويعهدها. ومن أجل معرفة التحولات يستحلف أمه الوطن لتدله (بالله يا أماهُ دُلّيني) هذا الإحساس بالتيه في أماكن يعرفها ويعرف مسمياتها؛ ولذا استخدم السؤال الحواري مع ذاته التائهة (من يعرف...(النهرين)؟..من أين الطريق إلى القزالي) تلك معالم يهتدِ بها السائر(النهرين – القزالي) ليصل لمبتغاه. فقد حفزه السؤال لتوصيل الرسالة عن دلالة غربة المكان. فشاعرنا عكس من خلال الخطاب الشعري البُعد النفسي وعلاقة الغربة الآنية التي يعيشها في ملامح المكان المادية بهذه العمارات العوالي وكذا ملامح الموضوع في صورة المحتل لصنعاء:

أليوم(صنعا) وهي متخمةُ الديار بلا أهالي
يحتلها السمّار والغازي، ونصف الرأسمالي
من ذا هنا؟ (صنعا) مضت واحتلها كل انحلالي
أمي! أتلقين الغزاة بوجه مضياف مثالي

هذا النداء (أمي) وقد حذف ياء النداء والتقدير (يا أمي) يعطينا دلالة على القرب النفسي من صنعاء (المدينة). المكان يظهر في ثنايا الخطاب بصيغ متعددة من الاستفهامات (وأقول: من أينَ الطريق؟ -هل هذه صنعا ...؟ – مَنْ ذا هنا؟ صنعا – الهمزة (أتلقين الغزاة بوجه مضياف مثالي) هذه الصورة الذهنية للمكان المألوف والأليف الذي يجسد روح الارتباط والانتماء إليه يجعلنا "ننجذب نحوه لأنه يكثف

(٤٧) عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية،ج١ ،ديوان لعيني أم بلقيس،ص٦١٢-٦١٤.

ISSN : 2410-1818

الوجود في حدود تتسم بالحماية"[٤٨].إن التجربة الشعرية التي رسمها البردوني تعكس مدى المعاناة النفسية التي تسيطر على مخيلة الشاعر فتجعله يفصح عن استنهاض روح المقاومة لصنعاء (المدينة) من المحتل حين قال:

لم لا تعـــادين العـــدى..؟ مـــن لا يعـــادي لا يـــوالي
مَـــنْ لا يصـــارع... لا نســـائيّ الفـــؤاد ..ولا رجـــالي
إنـــي أغـــالي في محبـــة مـــوطني...لِـــمَ لا أغـــالي؟[٤٩]

المكان هنا مرآة تعكس الماضي والحاضر في التجربة الشعرية وقد اكتسب ملامح نفسية تأبى البقاء في ظل احتلال السمار والغزاة والرأسمالي كل أولئك يجب أن تقاومه وتعاديه(صنعاء) لأن حب الوطن غالٍ (إني أغالي في محبة موطني). إنّ "القبضة التي يمسك بها الشعر وجودنا الكلي تحمل علاقة ظاهراتية لا تخطئها العين. الغزارة والعمق في القصيدة هما دائماً ظاهرة ثنائية الرنين ورجع الصدى. فكأنّ القصيدة بغزارتها وخصوبتها توقظ أعماقاً جديدة في داخلنا. للتأكد من الوظيفة السايكولوجية للقصيدة علينا تتبع المنظورين للتحليل الظاهراتي في اتجاههما نحو تدفقات الذهن ونحو أعماق الروح"[٥٠]. إنّ من يتفحص المكان في التجربة الشعرية عند البردوني يدرك غزارةً وعمقاً له مدلوله الفني والجمالي والنفسي في آن واحد. لاحظ عمق النص ومدلولاته النفسية والجمالية في عرض القضية التي تشغل فكر الشاعر مأساة وطن أحبَه لكن تمارس فيه كل ألوان الظلم والقهر والاستعمار حيث يقول:

بـــلادي مـــن يَـــدَي طـــاغٍ إلى أطغـــى إلى أجفـــى
ومـــن ســـجنٍ إلى ســـجنٍ ومـــن منفـــى إلى منفـــى
ومـــن مســـتعمرٍ بـــادٍ إلى مســـتعمرٍ أخفـــى
بـــلادي في كهـــوفِ المـــوتِ لا تفنـــى ولا تشْـــفى
تنقـــر في القبـــورِ الخُـــرسِ عـــن ميلادهـــا الأصـــفى
وعـــن وعـــدٍ ربيعـــيٍّ وراء عُيونهـــا أغفـــى[٥١]

(٤٨) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ص٣١.
(٤٩) عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية،ج١ ،ديوان لعيني أم بلقيس،ص٦١٢-٦١٤.
(٥٠) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ص٢٢.
(٥١) عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية،ج١، ديوان لعيني أم بلقيس، ص٥٨٢.

ISSN : 2410-1818

ولعل الثنائية الضدية تبدو في ظاهرها أنها تقوم على الاختلاف والتنافر إلا أنها في واقع الأمر تأتي عكس ذلك ضمن السياق لتبرز عمق القلق على الوطن والمعاناة النفسية الناجمة عن أحداث تلامس حيوية البُعد النفسي عند الشاعر في رؤيته للمكان (صنعاء).

ثانياً: البُعد الجمالي لصنعاء: يقوم على الوصف "بوصفه مكونا من مكونات الخطاب وبصفته وحدة نصية متمتعة بكيان خاص ولها اشتغال داخلي وبنية ووظائف مخصوصة"[٥٢]. ونقصد به الوصف الجمالي للمكان واللغة الشعرية الثرة عند البردوني تنطوي على إبداعات وكثافة دلالية توحي بجماليات المكان للمتلقي بثنائية بديعة تجذب القارئ فمن ذلك عندما يقدم لنا صنعاء حيث يقول:

ماذا أُحدّثُ عن صنعاءَ يا أبتِ؟ مليحةٌ عاشقاها: السّلُّ والجَربُ

الصيغة التعبيرية (مليحةٌ عاشقاها: السّلُّ والجَربُ) فكلمة (مليحة – عاشقاها) ربط صنعاء بالمرأة فكان حضور وارتباط المرأة بالمكان له أنه أكسبها" جمالاً مميزاً باعتبار أن المرأة كانت في كل من تجلياتها المختلفة مكاناً بشرياً، يلجأ إليه الشاعر كملاذ، وملجأ، ومخبأ، وهكذا يأخذ المكان من المرأة"[٥٣] الخصب والعطاء والعطر والجمال والحب والعشق.

أغني لمَن ؟ ..للحلوة المرة التي أُبرعمُ من حزنِ الرّمادِ شذاها
لصنعَا التي تُردي جميعَ ملوكِها وتهوى وتستجدي ملوك سواها
لصنعَا التي تأتي وتغربُ فجأةً لتأتي ويجتازُ الغروب ضُحاها

الشاعر يتغنى ويطرب لصنعاء الحلوة والمرة في آن واحد. هذه الثنائية المتمثلة في التقابل والضدية (حلوة/ مرة) ينسج الشاعر من كل ذلك الشذى والرائحة الطيبة، فصنعاء بما تحمل من قوة: تردي وتهلك كل من ملكها وفي ذات الوقت تهوى وتحب وتعشق ملوك لهم من القوة والصيت الطيب من الأمم الأخرى. لقد جعل المكان يتلون من خلال حركة الأفعال (تُردي – وتهوى – وتستجدي – تأتي – وتغربُ – لتأتي – ويجتازُ الغروب) فكل تلك الأفعال مضارعة تجعل المشهد حاضراً ومتكرراً، وتعكس

(٥٢) محمد نجيب العمامي، في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي للنشر، صفاقس الجديدة،ط١، ٢٠٠٥م.، ص٢٨
(٥٣) سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان، مرجع سابق، ص٨٠

ISSN : 2410-1818

طبيعة المكان الديناميكية المتجددة مما أعطت للقصيدة قيمًا جماليةً رائعة وأضافت إليها بُعدًا جماليًا ينطبع أثره في النفس دون مواربة. فالشاعر" يختار من الطبيعة أجزاء تناسبه، فيأخذها ثم يُعيدها ثانية إلى الطبيعة وهذا الأخذ والعطاء هو الذي أثرى الطبيعة، وجنبها الاستنفاذ على مقدار ما أُخذ منها، منذ بدء الخليقة إلى الآن[٥٤]. وفي قصيدة (**صنعاء.. في فندق أموي**) تظهر تجليات البُعد الجمالي للمكان (صنعاء) في رفقة البردوني حيث تنزل معه في فندق من فنادق المدينة(صنعاء) اسمه الفندق الأموي:

توهمت أني غبت عن هذه الرّوعى ... فمن أينَ جاءت تسحرُ الغرفة الصرعى؟
تهامسني في كل شيءٍ..تقول لي: ... إلى أين عني راحلٌ؟..خفف المسعى
ومن هذه الروعى؟ أظنُّ وأمتري ... وأدري...ويُنسيني لظى داخلي أقعى
أما هذه (صنعا)؟ نعم إنها هنا ... بطلعتها الجذلى بقامتها الفرعا
بخُضرتِها الكحلى ، بنكهة بوحها ... بريّا روابيها ،بعطرية المرعى
طلبت فطور اثنين: قالوا بأنني ... وحدي.. فقلتُ اثنين، إنّ معي (صنعا)[٥٥]

فاستفاد الشاعر من لافتة الفندق فوظفها توظيفاً جمالياً يظهر القدرة الابداعية في صياغة الأسلوب الايحائي الذي تجلى بمدى التوهم والتخيل عند البردوني حين قال: (توهمت أني غبت – جاءت تسحرُ الغرفة الصرعى – أما هذه (صنعا)؟ – بطلعتها الجذلى – بقامتها الفرعا – بخُضرتِها الكحلى – بنكهة بوحها – بعطرية المرعى – إنّ معي (صنعا) كيف تغدو علاقة الإنسان الجمالية بالمكان بكثافة اللغة وآلياتها المتنوعة، في سبيل ايصال الفكرة فقد شكلت حافزاً لإقامة العلاقة الجمالية بين الإنسان/الشاعر/ وذاته/صنعاء بين الأنا /والآخر بهذا الاتكاء على التراكيب التي تنسجم مع جو النص وتداخل الصور الاستعارية والاستفهامية أبرز لنا البُعد الجمالي للمكان.

وربما أضفى الأسلوب الحواري جمالية أخرى إضافة إلى جمالية البُعد الجمالي للمكان من خلال استخدام السؤال التعجبي والاستغراب مع نفسه – أما هذه (صنعا)؟ – ليشخصها للمتلقي بالمرأة في طلتها البهية ماثلة بين يديه ساحرة وجميلة وتذهلك

(٥٤) شاكر النابلسي ،جماليات المكان في الرواية العربية، دار الفارس، الأردن، ١٩٩٤م ،ص٢٥١ .
(٥٥) عبدالله البردوني ،الأعمال الشعرية، ج٢، ديوان زمان بلا نوعية،ص٨٢٧-٨٢٨.

ISSN : 2410-1818

بقامتها وطولها الفارع وتكسوها الخضرة بمثابة الكحل للعين وبعطرها ورائحتها تجذب الشاعر/ المتلقي/القارئ /لتعكس لنا الصورة الشعرية في بُعدها الجمالي.

لقد عكس المكان دلالة البعد النفسي والجمالي وكشف عن هوية صنعاء وعلاقة الشاعر بها من خلال الألفة والمحبة ورغبته الملحة في إبراز صنعاء بجمالها وأُنسها تتسلل بداخله مبتهجة:

أصوغ وإياها ولادة (يحصب) أغني وإياها : (أبارق الجرعا)
نطير إلى الآتي ونخشى غيوبه نفرّ من الماضي، ونهفو إلى الرّجعى
ومن جمر عينيها أشبُّ قصيدة ومن جبهتي تمتص رناتها الوجعى
ضبابية الأخبارِ ،تدرين سرّها؟ أتُصغي؟ ومن منّا بمأساتنا أوعى؟
لماذا أنا منعى المحبينَ والعِدا؟ لكي يصبح القتّالُ قتلى بلا مَنْعى

ويبدو أن توالي الأفعال (أصوغ – أغني – نطير – نخشى – نفرّ – نهفو – أشبُّ – تمتص – تدرينَ – تصغي – يصبح) تعطي معنى التجدد والحدوث فتوحي الصيغة بالحركة الديناميكية وما تحمله من معنى المشاركة، حيث جعل من الفعل (أصوغ) وعطفه على(وإياها/هي) فالشاعر أظهر المقدرة في استغلال إمكانات اللغة وقصدية التوظيف ضمن سياق النص في إكمال الصورة تدريجيا على امتداد مساحة النص المكون من سبعة عشر بيتاً. فصاغ الشاعر وحدة وألفة بين الأنا /والآخر أو بين الشاعر مع المكان (صنعاء) ولادة (يحصب) مجازاً تجاوز بها الإحساس بالمتعة إلى لحظة المشاركة و التفاعل في صنع الحدث (الولادة)، وهي لا تأتي بين عشية وضحاها بل ارتبطت بعامل الزمن وامتداد الوقت، ولم يقف عند الولادة وإنما زاد الالتصاق والتلاحم والانسجام التام بالتحليق معاً مما عكس دلالة العلاقة الوطيدة بين المدينة/الأرض/ المرأة /الطبيعة / والشاعر وما بينهما من العلاقة الروحية والمحبة الصادقة.

ثالثا: البُعد الحضاري/التاريخي: التجربة الشعرية عند البردوني تبحث في الاحتفاء بـ(صنعاء) عن الروح المندثرة فيها بالبحث عن بقايا الماضي المتجسد في الحضارة المطمور علّها تصنع صدمة كهربائية في نفس المتلقي/ القارئ لتبعث فيه روح التفاؤل والأمل أو تذكر الجيل بما كانت عليه اليمن.

ISSN : 2410-1818

لقد اتكأ البردوني على استذكار الحضارة العربية الأصيلة من خلال ذكر المدن والممالك والحصون القديمة في اليمن (معين، سبأ، حمير، حضرموت قتبان، غمدان، ريدان) تلك الأماكن تعكس المدلول الحضاري والسياسي في آن واحد، فالبردوني يوظف الحضارات القديمة ليعكس الثقافة الكبيرة التي امتدت عبر قرون خلت وبقدرات متنوعة حيث يقول في قصيدة (محشر المقتضين):

ماتوا كما قيلَ أزمانا فأزمانا مَنْ ذا حدا ياليالي ركب (غمدانا)
وقال : شع (معين) وانجلى (سبأ) (ريدان) ألقى عليه الفجر أردانا
قال ابن جعدان: صارت جرن(مقولةٍ) (صنعاء)، قأين يرى(شمسان) شمسانا
تأبى السعيدةُ يا صنعاءُ أن ترثي بكراً، فتدعى (تعزّ) العزّ ذبيانا[٥٦]

إننا نلمس"هنا المرارة التي يتجرعها الشاعر وهو يستذكر تلك الحضارات الشاخصة التي ذاعت في أرجاء المعمورة، فيما لا يرى بلاده اليوم في مؤخرة الركب الحضاري"[٥٧].

إنّ (صنعاء) كانت حضارة مشرقة في حين كانت كل البقاع العربية في حالة سبات ونوم عميق إنه يستنهض في اليمني الحر صناعة حضارة في الزمن الحاضر حيث يقول في قصيدة "زحف العروبة" قيلت سنة ١٩٥٨م في عهد حكم الإمامة:

أترى ديار العرب كيف تضافرت فكأنّ (صنعا) في دمشقَ روابي
وكأن(مصرَ) و(سوريا) في(مأرب) علمٌ وفي(صنعا) أعزُّ قبابِ
ذكرّهُ بالماضي عسى يبني على أضوائه مجدا أعزّ جنابِ
ذكرّه بالتاريخ واذكر أنّه شعبُ الحضارة مشرقُ الأحسابِ
صنع الحضارة والعوالمُ نومُ والدهر طفلٌ في مهودِ ترابِ
وتفيق(صنعا) الجديد على الهدى والوحدة الكبرى على الأبوابِ[٥٨]

فالذي نلاحظه عند الشاعر في هذا النص هو العلاقة القوية بين الشاعر والمكان، أي بينه وبين وطنه فهو متعلق بالوطن وقد بدا لنا جلياً من خلال تكرار ذكر "صنعاء"

(٥٦) عبدالله البردوني الأعمال الشعرية المجلد الثاني ،ديوان رجعة الحكيم بن زايد، ص١٦٣٧و ما بعدها.
(٥٧) فاطمة عبدالله محمد العمري، أثر التراث في شعر البردوني، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، العراق، ٢٠٠٣م، ص ١٢٠
(٥٨) عبدالله البردوني الأعمال الشعرية المجلد الأول ،ديوان في طريق الفجر،ص٥٣-٥٧

ISSN : 2410-1818

ثلاث مرات وذكر "مأرب" الرمز دال على عمق العشق للوطن، ومن تكرار عبارة (شعبُ الحضارة – صنع الحضارة) فكان "هذا التلاحم من أهم مشخصات التجربة الفنية ومن ثم استطاعت هذه القصيدة أن تكشف عن رؤية الشاعر للواقع بطريقة فنية"[٥٩]. الشاعر هنا يحاول" إعادة قراءة الماضي وتاريخيه وفق رؤية الواقع الحالي التي تنسجم مع روح الشعر وخصوصية الكتابة "[٦٠].

إن البحث الدؤوب عن صنعاء في ثنايا الحياة وفي عمق التاريخ والتغني بها عند البردوني ليس من قبيل العبث وإنما هو عشق وولهٌ للمكان الذي تتجاذب حوله المصالح الذاتية من قبل الطغاة والجلادين لتحل تلك الأهواء بويلاتها على الشعب من الأسى والحزن والمأساة :

بلقيسُ يا أمّ الحضارة أشرقي ... من شرفة الأمس البعيد وكبري
واستعرضي زُمرَ الاشعة واسبحي ... فيها بناظرك الكحيل الأحورِ
مولاتي الحسناء أطلي وانظري ... من زهوة الاجيال ما لم تنظري
ها هنا نبني فوق هامة مأربٍ ... وطنا ونبي ألف صرح مرمري
وتعانقت صنعا ومصر وجِلّق ... فيها عناق الشوق والحُبّ البري
لولاك يا بطل الخلافة ما احتوى ... صنعا وجلّق حضن أم الأزهرِ[٦١]

إنّ الماضي العريق وذكرياته المحببة للنفس يصبح العامل والمحرك للإنسان في استعادة ذلك الماضي وإعادة تحقيقه على أرض الواقع. وهذا ما يرجوه الشاعر ويحاول ايصاله إلى المتلقي والقارئ من خلال التأكيد على المكان – الارض أو الوطن المتمثل في (صنعاء) فيه دلالة على الرغبة للبقاء في جمال الطبيعة وأصل خلق الإنسان ولعل مايدعو للتأمل في تكرار الكثير من المدن إنما يطلب الراحة والطمأنينة لذاته وللشعب وتجسيد روح العروبة في الوطن العربي.

وربما الذي ساعد الشاعر على فهم طبيعة ما حدث في الواقع اليمني المعاصر هو رؤيته لحركة التاريخ المكانية وحتميتها ولذا جاءت دعوة الشاعر لأم الحضارة

(٥٩) د. عزالدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر في اليمن "الرؤية والفن"، دار العودة بيروت ١٩٨٦م، ص٢١٨
(٦٠) جيهان عوض أبو العمرين، جماليات المكان في شعر تميم البرغوثي، رسالة ماجستير، جامعة قطر، ٢٠١٣م ص٤٥.
(٦١) عبدالله البردوني الأعمال الشعرية المجلد الأول ،ديوان من أرض بلقيس، ج١ ،ص٧٩-٨٠

ISSN : 2410-1818

(بلقيس) – اليمن – لتشرق من خلال عودتها للصدارة وتصحيح مسار التاريخ والحضارة على رؤى واضحة بعيدة الظلم والاستبداد.

وها هو البردوني في قصيدة أخرى بعنوان (صنعاء والحلم والزمان) يجدد الدعوة لصنعاء لتنهض وتشرق من جديد وتنفض عنها غبار الكسل والخمول وتستعيد نشاطها في روح تفاؤلية حيث يقول:

صنعاء ماذا تشتهين؟ أتهدئين لكي تموري
تتوهجين و لا تعينَ وتنطفين بلا شعور
كم تحملين ولا ترين وتتعبينَ على الدهور
ما زال يخذلك الزمانُ فتبزغينَ لكي تغوري
يا شمسَ صنعاء الكسولَ أما بَدا لكِ أن تدوري

وكأني به مشفق عليها مما وصلت إليه حالة (صنعاء) من البؤس، فجعل من الحوار عبر استنطاق ما بداخلها من أسى ومعاناة. إنّ هذا الاستفهام لصنعاء(صنعاء ماذا؟ - أتهدئين - كم تحملين) لا يحتاج إلى إجابة فروح الارادة والاشتهاء والتوثب واضحة تجلياتها من خلال الحركة للأفعال(تشتهين – تهدئين – تموري – تتوهجين – تعين – تنطفين – تحملين – ترين – تتعبين – يخذلك تبزغين – تغوري – تدوري) والفعل الأخير هي الحركة الحتمية لصنعاء في استعادة روحها وحضورها الناصع بالرغم من التثبيط والتأييس المتمثل في الفعل المقصود (يخذلك الزمان).

إن طلب الهدوء لا يصدر غالباً إلا من منفعل. هذا الانفعال يكشف لنا عن روح ثائرة متوجه عند البردوني، حيث يوجهها لـ(صنعاء) ويحفزها في اجتهاد منه على التحول من الكسل لتشرق الشمس من جديد كما هي عادتها تغيب وتختفي لكنها تعود وتظهر ولا يطول غيابها فهي حركة دائبة.

رابعاً: البُعد الوطني –الثوري : الوطن: "مكان إقامة الإنسان ومقَّره، وإليه انتماؤه وُلِدَ به أولم يولد. والواطن: مربض البقر والغنم الذي تأوي إليه. (ج) أوطان "(٦٢). الوطن يمثله البيت والبلد والدار والمدينة والقرية والريف، لكن تلك الفضاءات هي

(٦٢) المعجم الوسيط.

ISSN : 2410-1818

وطن لا حدود له رسمه الشاعر بلغة أدبية تشعرك بتجاوز حدوده الجغرافية إلى حضور الهم الإنساني على المستوي الفردي والمجتمعي وعلى مستوى مشكلات الوطن العربي بشكل عام.

ولعل من مظاهر الانقلاب في شعر شمال اليمن الحديث هو ظهور كوكبة من الشعراء الذين غيروا مفهوم الشعر من مدح الولاة والحكام إلى مفهوم النضال والكفاح وبعث روح الوطنية في الشعوب من أمثال محمد محمود الزبيري وزيد الموشكي؛ فيقول الدكتور عبد العزيز المقالح: "أعتقد أن صوت الزبيري والموشكي والإرياني والعزب كانت قد مهدت الطريق إمام جيل جديد من الشعراء وفتحت للشعر باباً تاريخياً يتجاوز معه الشاعر أسباب التخلف وتصبح الكلمة فيه وسيلة للتعبير في صدور الملايين، وسلاحا كفاحيا على طريق الزبيري وتحقيق أحلام الجماهير في العدل والحرية والمساواة ..وربما كان في مقدمتها الشاعر عبدالله البردوني "[٦٣] .

لقد كان البردوني من أكثر الشعراء تغنيا بالوطن ولسان حال الشعب بشكل عام و مثل صوت كل الشرائح والطبقات بدءاً بطبقة القبيلة والتجار وانتهاءً بطبقة العمال والفقراء والكادحين والاغتراب على حد سواء دون مواربة، ولذا امتزج حب الوطن بمدى ملاحظته لتلك التحولات الجذرية في عهد الإمامة من استعباد الفرد والشعب بشكل عام والمتمثلة في ممارسات الظلم والتعسف والقهر والاستبداد فجاءت الدعوة إلى مناهضة تلك القيود في حرية الفرد والمجتمع." إنه من خلال انصهار (الأنا) بـ(نحن) واتحاد(الذات) بـ(الموضوع) لا تعبر عن واقعها المحلي فحسب بل تعبر عن واقع إنسانيّ عام، لأن الأدب لا يُصبح عالمياً إلا إذا كان مخضبا بسمات الواقع الخاص الذي يعبر عنه"[٦٤].

إنّ البردوني شاعر ثوري بامتياز يملك القدرة والجرأة في المواجهة، ولعل تلك القصيدة التي كتبها عندما كان الإمام أحمد يقيم لنفسه الزينات والاحتفال بسحق الثورة وإعدام الثوار حيث يقول البردوني في (عيد الجلوس) خارجا عن المألوف ومعلناً الانقلاب على الإمام بصوته الثوري المتقد:

(٦٣) عبدالعزيز المقالح مقال تقديم لمجموعة الأعمال الشعرية المجلد الأول،ص٣٨.
(٦٤) د. طه وادي، الشعروالشعراء جماليات القصيدة المعاصرة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، مصر،٢٠٠٠م، ص١٨.

ISSN : 2410-1818

عيد الجلوس أعز بلادك مسمعاً تسألك أينَ هناؤُها؟ هل يوجدُ؟
تمضي وتأتي والبلاد وأهلُها في ناظريك كما عَهِدتَ وتعهدُ
يا عيد حدث شعبك الظامي متى يروى، وهل يروى وأين المَوردُ
يا عيد هذا الشعب ذل نبوغه وطوى نوابغه السكون الأسودُ
ضاعت رجال الفكر فيه كأنها حلم يبعثره الدجى ويبددُ
للشعب يوم تستثير جراحه فيه ويقذف بالرقود المرقدُ
ولقد تراه في السكينة إنما خلفُ السكينة غضبةٌ وتمردُ
لا لم ينم شعب ويحرقُ صدره جرحٌ على لهب العذابِ مسهدُ
أهلاً بعاصفة الحوادث إنها في الحي أنفاس الحياة تردّدُ[٦٥]

لقد ظهر جليا من الأبيات السابقة حرص الشاعر على تبني هموم الشعب وقضاياه والتنديد بمظاهر العبودية وحرية الشعب وكرامته ولعل في تكرار (يا عيد حدث شعبك الظامي – يا عيد هذا الشعب ذل – للشعب يوم تستثير جراحه). إن للتكرار علاقة بحالة الشاعر النفسية، وان التكرار الناجح هو ما يتوفر فيه شرطان :أن يكون اللفظ المكرر متين الارتباط بالسياق،والثاني أن يلقى عناية الشاعر التامة .

فالوطنية بمفهومها العام ليس حب العيش في المسكن بهدوء فقط، بل بتبني هموم الناس وقضاياهم وكشف زيف المدعين والمتآمرين عليه .

التجربة الشعرية عند البردوني بنيت من عدة عناصر أساسية هي: التكرار والتنوع والقافية التي تشكل موسيقى مشحونة بالنفس الثوري الصاخب الذي يتلاءم والمعاني لتثير دلالة صوتية خالصة في سمع المتلقي.

الخاتمة:

يظهر للمتأمل في شعر عبد الله البردوني أن رؤيته للظاهرة المكانية لها خصوصيتها وأبعادها في نفسه وفكره تعكسها تلك الأماكن المتعددة التي تكتسي بألوان مختلفة وتعدد الفضاءات ما بين أماكن واقعية حقيقة وأماكن متخيلة مرتبطة برؤى ومخزون الشاعر التي تلامس طيف الأحبة والخيال. وقد وتناولها في دقة التحليل العميق

(٦٥) عبدالله البردوني الأعمال الشعرية المجلد الأول، ديوان في طريق الفجر،ص٢٤٦-٢٤٧.

ISSN : 2410-1818

والإحساس المؤثر بما يعطيك دلالة واسعة الأفق نحو المكان بشقيه :(المفتوح –والمغلق) أنها تختلف في الأداء والتعبير والتدفق عن بقية شعراء اليمن في العصر الحديث. وبناء على ما سبق فإن البردوني كما نزعم أنه تميز بالآتي:

رسم المكان بلغة شعرية متعددة الدلالات تجعل من المتلقي في حوار دائم مع ذاته وتأملاته عن مكنون الظاهرة المكانية في صورتها الجمالية والنفسية والثورية.

أن البردوني من خلال رؤيته المكانية تعكس ثقافة عالية بالتاريخ والأحداث الدرامكية لتلك الأمكنة.

جسد البردوني الروح الثورية بامتياز بما يملك من القدرة والجرأة في المواجهة وما قصيدة (عيد الجلوس) إلا انعكاس لرفض نفسه لما يجري في وطنه وما يمارس على المواطن من مظاهر الظلم والذل.

ISSN : 2410-1818

المصادر والمراجع :

١) إبراهيم أحمد المقحفي، معجم اللدان والقائل اليمنية. بيانات النشر

٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة ،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ،دار الجيل بيروت،ج٢ ،ط٥ ، ١٩٨١م.

٣) ابن منظور،لسان العرب، مج٦ باب(الميم –مكن)،دار المعارف، القاهرة،(د.ت).

٤) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات في معجم المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٨م.

٥) أبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده المرسي المعروف بابن سيده المحكم والمحيط الأعظم ،تح عبدالحميد هنداوي. دار الكتب العلمية،ط١، ٢٠٠٠م.

٦) أبو زيد الخطابي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: محمد علي الهاشمي،ج١ ،لجنة البحوث والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط١، ١٩٧٩م.

٧) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة ،ج١٠،تح علي حسن هلالي، الدار المصرية للتأليف والترجمة ودار القومية العربية للطباعة القاهرة ،(د.ط) ١٩٦٤م.

٨) جبور عبدالنور، المعجم الأدبي، مادة (ظاهرة)،دار العلم للملايين، بيروت لبنان،ط٢ ، ١٩٨٤م.

٩) جيهان عوض أبو العمرين، جماليات المكان في شعر تميم البرغوثي، رسالة ماجستير، جامعة قطر، ٢٠١٣م.

١٠) حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي: قراءة موضوعاتية جمالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق، ٢٠٠١م.

١١) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩م.

١٢) حميد لحمداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطّباعة والنشر والتّوزيع،ط ١، بيروت ١٩٩١م.

ISSN : 2410-1818

١٣) حيدر لازم مطلك، المكان في الشعر العربي قبل الاسلام، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٨٧م.

١٤) رضا السيد العشماوي محمد، رؤية المكان في روايات يوسف السباعي، رسالة ماجستير، جامعة المنصورة، مصر، ٢٠١٠م.

١٥) سعد حسن كمّوني، الطلل في النص العربي، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

١٦) سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان، المكان في شعر طاهر زمخشر رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز٢٠٠٨م.

١٧) شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، دار الفارس، الأردن، ١٩٩٤م.

١٨) شعلال رشيد، شعرية الاستهلال عند عبدالله البردوني، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر - بسكرة -، العدد الثامن ٢٠١١م.

١٩) طه وادي، الشعر والشعراء جماليات القصيدة المعاصرة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، مصر، ط٢٠٠٠م.

٢٠) عبد الرزاق جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية (د.ط) ١٩٨٩م.

٢١) عبد العزيز المقالح، ملامح حداثية في شعر البردوني، مقالة بالنت. بياناتها

٢٢) عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠٢م.

٢٣) عبدالحميد المحادين، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ٢٠٠١م.

٢٤) عبدالملك مرتاض، السبْع المعلّقات "مقاربة سيمائيّة/ أنتروبولوجيّة لنصوصها"، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق١٩٩٨م.

٢٥) عبده بدوي، الطلل والتشبيب في مقدمة القصيدة، مقالة، فصول مجلة النقد الأدبي، ج١ العدد٤ لسنة ١٩٨١م.

٢٦) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر في اليمن "الرؤية والفن"، دار العودة بيروت، ١٩٨٦م.

ISSN : 2410-1818

٢٧) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة :غالب هلسا ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان، ط٢ ، ١٩٨٤م.

٢٨) غانم كامل الحسناوي، وم.د عمار سلمان المسعودي ،مقالة ،مجلة جامعة كربلاء العلمية -المجلد الحادي عشر، العدد(٤) ٢٠١٣م.

٢٩) غني صكبان سلمان، الزمان والمكان في شعر العصر العباسي الأول، رسالة دكتوراه كلية التربية جامعة بغداد ،لسنة٢٠٠١م.

٣٠) فاطمة عبدالله محمد العمري، أثر التراث في شعر البردوني، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة العراق، ٢٠٠٣م.

٣١) كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٦م.

٣٢) محمد عزام، شعرية الخطاب السرد ي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

٣٣) محمد نجيب العمامي، في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي للنشر، صفاقص الجديدة، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٤) مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني، السخرية في شعر عبد الله البردوني، رسالة ماجستير ،جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣١هـ.

٣٥) وليد مشوح ،الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني، كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، السعودية، ٢٠٠٠م.